عصر الخفاء في مصر الإسلامية

الحاكم بأمر الله

— ٣ —

للأستاذ محمد عبد الله عنان

كان الحاكم بأمر الله صبياً فى نحو السادسة عشرة حينما بدأ يضطلع بمهام الدولة على هذا النحو ؛ بيد أن هـذا الفتى القوى النفس ، كان حاكماً حقيقياً يقبض على السلطة بيديه القويتين ؛ ويشرف بنفسه على مصاير هـذه الدولة العظيمة ، ويبدى فى تدبير شئونها نشاطاً مدهشاً ، فيباشر الأمور فى معظم الأحيان بنفســه ، ويتولى النظر والتدبير مع وزرائه [١] ؛ وهكذا كان الأمير اليافع يؤثر العمل المضنى على مجالى اللهو واللعب التى يغمر تيارها من كان فى سنه ، وفى مركزه وظروفه ؛ وقد لزم الحاكم هذا النشاط المضنى طوال حياته . وكان الحاكم ذا بنية قوية متينة ؛ وكان منذ حداثته يتمتع بمظهر الجبابرة : مبسوط الجسم ، مهيب الطلعة ، له عينان كبيرتان سوداوان تمازجهما زرقة ، ونظرات حادة مروعة كنظرات الأسد لا يستطيع الانسان صبراً عليها ؛ وله صوت قوى مرعب يحمل الروع إلى سامعيه ؛ وقد كان فى الواقع سليل نسل من الجبابرة الصحراويين الأقوياء ، الذين يذهبون فى زهرة العمر والقوة [١] ؛ وكان أبوه العزيز بالأخص عظيم القامة عريض المنكبين قوى التكوين [٢] ، فورث عنـه ولده هذه الخواص الطبيعية البديعة ، ولم يبددها فى شهوات النفس التى ينغمس فيها أبناء القصور

وهنا يبدأ عصر الحاكم بأمر الله حقاً ، وهو أغرب عصر فى تاريخ مصر الاسلامية ، وربما كان أغرب عصر فى تاريخ الاسلام كله ؛ عصر يمازجه الخفاء والروع ، وتطبعه ألوان من الاغراق والتناقض مدهشة مثيرة معاً ؛ ولكن هذه الألوان الخفية المغرقة ، وهذه النواحى المتباينة هى التى تسبغ على العصر أهميته وطرافته ، وهى التى تحيط شخصيـة الحاكم بحجب كثيفة من الظلمات يصعب اختراقها . ويحسن قبل أن نعرض إلى درس هذه الشخصية العجيبة وقبل أن نحاول استجلاء غوامضها ، واستقراء حقيقتهـا ، أن نستعرض أولا أعمـال الحاكم وتصرفاته ، وحوادث العصر وظروفه ؛ ثم نحاول على ضوئها أن نتفهم روح العصر ، ونفسية تلك الشخصية الفريدة التى أفاضت عليه من خفائها وروعتها ، وملأته بنشاطها ونزعاتها وأهوائها ، وتبوأت فيه المقام الأسمى

— ٥ —

تقدم الرواية الاسلامية الينا الحاكم فى صور مروعة مثيرة ؛ فتقدمه الينا أولاً فى صورة جبار منتقم ، وسفاك لا يخبو ظمؤه إلى الدماء ؛ ثم تقدمه الينا فى صورة طاغيـة مضطرم الأهواء والنزعات ، متناقض الرأى والتصرفات ، لا تـكاد تلمس لأعماله باعثاً أو حكمة ؛ شرساً جوحاً ، ميالاً إلى الشر ، خؤوناً وافر الغدر ، لا يستقر على ثقة أو صداقة ؛ وتقدمه الينا على العموم

(١) راجع ابن الصيرفى — الاشارة إلى من نال الوزارة ص ٢٦

(١) يلاحظ أن العزيز أبا الحاكم توفى فى الثالثة والأربعين ، وأن جده المعز توفى فى السادسة والأربعين ، وأن المنصور والد المعز توفى فى الثانيـة والأربعين (راجع المقريزى ج ٢ ص ١٦٣ و ١٦٧)

(٢) ابن الأثير ج ٩ ص ٤٠

لها مصابيح فيها الكهرباء سطعت — يضيء من نورها لبنان والسيف

ورق النسيم وراق الجو ، فتذكرت قول القائل :

يا نسيماً هب مسكاً عبقاً — هذه أنفاس ريّا جلّقا

لـكننى ما كدت أنشق هذه الأنفاس العطرات وأغرق فى بحر من التأملات حتى فتح الخادم مذياع مصر فأسمعنى ألحاناً شجية حملتها أنفاس القاهرة الكهربائية ، فذكرت شتاء مدينة المعز وعهدى به قريب ، ورددتُ قصـيدة لى ودعتُ بها تلك المدينة السـاحرة ، منها الأبيات الآتية فى نسمات النيل :

أوّاه يا نسمات النيل سـاجيةً — كم ضمك الصدر تهياماً وتذكاراً

وكم تعطرتِ بالريحان وامتزجت — ريّاك بالروض أفناناً وأزهاراً

ما إن نشقتك حتى خلتُ منتعشاً — ماء الحياة جرى فى الجسم أنهاراً

. . . .

وخفق القلب لشتاء مصر ولربيع دمشق معاً ، فكلاهما ساحر جذاب ، وكلاهما مجتلى ذكريات عـذاب ، وفى البلدين رفاق وصحاب ، وأهل وأحباب ، وفيهما للثقافة العربية أفسح رحاب

دمشق — مصطفى الشهابى

فى ثوب شخصية بغيضة خطرة ، فاقدة الرشاد والتعقل ، يغلب عليها الجانب الأسود ؛ ولكنها مع ذلك لا تنكر عليه بعض نواحى الخير والخلال الحسنة ، فتصفه لنا بالجود والتقشف والزهد فى كثير من متاع الحياة الدنيا

« كانت خلافته متضادة بين شجاعة وإقدام ، وجبن وإحجام ، ومحبة للعلم وانتقام من العلماء ، وميل إلى الصلاح وقتل الصلحاء ؛ وكان الغالب عليه الصلاح ، وربما بخل بما لم يبخل به أحد قط »[1]. « وكان جواداً ، سمحاً ، خبيثاً ماكراً ، ردىء الاعتقاد ، سفاكاً للدماء ، قتل عدداً كبيراً من كبراء دولته صبراً ؛ وكان عجيب السيرة يخترع كل وقت أموراً وأحكاماً يحمل الرعية عليها »[2] . « وكان حاله مضطرباً فى الجور والعدل ، والاخافة والأمن ، والنسك والبدعة »[3] . فى هذه الصور وأمثالها تقدم الرواية الاسلامية إلينا الحاكم ؛ ولا ريب أن فى حياة الحاكم وفى أعماله وتصرفاته ما يبرر كثيراً من هذه الأوصاف المثيرة ؛ غير أنها ليست كل شئ فى هذه الحياة العجيبة الغامضة ؛ ومن الخطأ أن نقف عندها فى تصوير الحاكم والحكم عليه ، ومن الواجب أن نتقصى فى حياة الحاكم جوانب أخرى ، وأن نحاول تفهم شخصيته ونفسيته على أضواء أخرى

افتتح الحاكم عهد حكمه بقتل بَرْجَوان وصيه ومدبر دولته ؛ وكان للجريمة باعث سياسى قوى ؛ فلم تكن يومئذ دليلاً على حبه للسفك أو ظمئه إلى الدم ، غير أن الحاكم مالبث أن أتبع ضربته بضربة دموية أخرى هى مقتل ابن عمار زعيم كتامة وأمين الدولة السابق ؛ وكان الحاكم قد حماه من برجوان وأطلق له رسومه وجراياته ، وأذن له بالركوب إلى القصر ؛ فى ذات مساء ، حين انصرافه من القصر ، انقض عليه جماعة من الغلمان الترك كانت قد هيئت للفتك به ، فقتلوه وحملوا رأسه إلى الحاكم (شوال سنة ٣٩٠)[4] ولم تكن للجريمة بواعث ظاهرة ، ولكنا نستطيع أن نعللها برغبة الحاكم فى سحق الزعماء ذوى البأس والعصبية ، وهى رغبة يدلل عليها كما سنرى فى مواطن كثيرة ؛ وكانت كتامة أقوى القبائل المغربية كما قدمنا ، وكان ابن عمار أقوى زعماء الدولة . ولكن سنرى من جهة أخرى أن الحاكم يسرف فى القتل ، فيقتل وزراءه وغلمانه تباعاً ، دون حكمة ظاهرة إلى ما كان من نزعة مؤقتة أو سخط فجائى

وفى سنة ٣٩٣ هـ قتل الحاكم وزيره فهد بن ابراهيم بعد أن قضى فى منصبه زهاء ستة أعوام ، وأقام مكانه على بن عمر العداس ، ولكن لم تمض أشهر قلائل حتى سخط عليه وقتله ، وقتل معه الخادم ريدان الصقلى حامل المظلة ، ثم قتل عدداً كبيراً من الغلمان والخاصة[1] (سنة ٣٩٤) ، ثم تبع ذلك بمقتلة أخرى كان من ضحاياها الحسين بن النعمان الذى شغل منصب القضاء منذ سنة ٨٩ ، وعدد كبير من الخاصة والعامة ، قتلوا أو أحرقوا[2] ؛ وقتل جماعة من الأعيان صبراً[3] ؛ ولم يك ريب فى أن هذه المذابح المتوالية كانت عنوان نزعة خطيرة الى البطش والفتك واحتقار الحياة البشرية ؛ وكان أشد الناس تعرضاً لهذه النزعات الخطرة ، أقرب الناس الى الحاكم من الوزراء والكتاب والغلمان والخاصة ، ولم يكن الكافة أيضاً بمنجاة منها ، فكثيراً ماعرضوا للقتل الذريع لأقل الريب والذنوب ، أو لاتهامهم بمخالفة المراسيم والأحكام الغريبة الصارمة التى توالى صدورها فى تلك الفترة . وكان رجال الدولة ورجال القصر وسائر العمال والمتصرفين يرتجفون رعباً وروعاً أمام هذه الفورات الدموية ؛ وكان المجتمع القاهرى ، ولاسيما التجار وأرباب المصالح والمعاملات يشاطرونهم ذلك الروع ؛ ويروى لنا المسبحى صديق الحاكم ومؤرخه فيما بعد ، أن الحاكم أمر فى سنة ٣٩٥ بعمل شونة كبيرة مما يلى الجبل ملئت بالسنط والبوص والحلفا ، فارتاع الناس وظن كل من له صلة بخدمة الحاكم من رجال القصر أو الدواوين أنها أعدت لاعدامهم ، وسرت فى ذلك اشاعات مخيفة ، فاجتمع سائر الكتاب وأصحاب الدواوين والمتصرفين من المسلمين والنصارى فى أحد ميادين القاهرة ، ولم يزالوا يقبلون الأرض حتى وصلوا الى القصر ، فوقفوا على بابه يضجون ويتضرعون ، ويسألون

(١) ابن قزاوغلى فى مرآة الزمان (راجع النجوم الزاهرة ٤ ص ١٧٦)
(٢) ابن خلكان (ج ٢ ص ١٦٦) والذهبى (راجع النجوم الزاهرة ٤ ص ١٧٨)
(٣) ابن خلدون (ج ٢ ص ٦٠)
(٤) المقريزى (ج ٣ ص ٥٨)

(١) المقريزى — ج ٤ ص ٦٩
(٢) المقريزى ج ٣ ص ٣٢
(٣) النجوم الزاهرة (ج ٤ ص ٢١٢)

العفو عنهم ؛ ثم دخلوا القصر ، ورفعو الى أمير المؤمنين عن يد قائد القواد الحسين بن جوهر رقعة يلتمسون فيها العفو والأمان فأجابهم الحاكم على لسان الحسين الى ما طلبوا ؛ وأمروا بالانصراف والبكور لتلقى سجل العفو . واشتد الذعر بالغلمان والخاصة على اختلاف طوائفهم ، فضجوا واستغاثوا وطلبوا العفو والأمان فأجيبوا الى ما طلبوا ؛ وتبعهم فى الاستغاثة التجار وأرباب المهن والحرف ؛ وتوالى صدور الأمانات لمختلف الطوائف ؛ وقد أورد لنا المسبحى صورة أحد هذه الأمانات ونصها : « هذا كتاب من عبد الله ووليه المنصور أبى على الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين لأهل مسجد عبد الله : إنكم من الآمنين بأمان الله الملك الحق المبين ، وأمان جدنا محمد خاتم النبيين ، وأبينا على خير الوصيين ، وآبائنا الذرية النبوية المهديين صلى الله على الرسول ووصيه وعليهم أجمعين ؛ وأمان أمير المؤمنين على النفس والحال والدم والمال ، لاخوف عليكم ولاتمديد بسوء اليكم ، إلا فى حد يقام بواجبه ، وحق يؤخذ بمستوجبه فيوثق بذلك ، وليعول عليه إن شاء الله تعالى ؛ وكتب فى جمادى الآخرة سنة خمس وتسعين وثلثمائة . . . الخ »[1]

وهكذا هبت على المجتمع القاهرى ريح من الرهبة والخشوع ، وأصبح اسم هذا الخليفة الفتى الذى لم يجاوز يومئذ العشرين من عمره ، وأصبحت نزعاته وتصرفاته مثار الرعب والروع . ولم يك ثمة ريب فى أن القتل كان فى نظر الحاكم خطة مقررة ، ولم يكن فورة أهواء فقط ؛ وقد لزم الحاكم هذه الخطة الدموية طول حياته ؛ ووقعت فى الأعوام التالية حوادث ومناظر من القتل الذريع لانهاية لها ، وكانت تقترن أحياناً بضروب مروعة من القسوة ، وقلما كان يغادر الحكم وزير أو كبير من كبراء الدولة إلا مسفوك الدم ، وفى الأحوال النادرة التى كان ينجو المعزول فيها بحياته ، كانت تلازمه نقمة الحاكم حتى يهلك . ففى شعبان سنة ٣٩٨ هـ عزل قائد القواد الحسين بن جوهر ، وعين مكانه صالح بن على الروذبادى ولقب بثقة ثقات السيف والقلم ؛ وبعد أسابيع قلائل أمر الحاكم الحسين وصهره قاضى القضاة عبد العزيز ابن النعمان بلزوم دارهما ؛ ثم أمر بالقبض عليهما ، ففر الحسين وقبض على عبد العزيز ؛ واضطربت القاهرة لمكانة الحسين ، ثم عفا عنهما وأعيد عبد العزيز الى منصبه ، ولكنهما لم يطمئنا الى هذا العفو المريب ، ففرا بأسرتيهما ، فأمر الحاكم بمصادرة أموالهما ، وسير الخيل فى طلبهما ، وأنفذ اليهما كتب الأمان ؛ فعادا الى القاهرة بعد أن استوثقا من الخليفة بالأمان والعفو ، واستمرا يركبان الى القصر مدى حين ؛ وفى ذات يوم استبقيا بالقصر « لأمر تريده الحضرة » ثم قتلا فجأة (١٢ جمادى الآخرة سنة ٤٠١) ، وصودرت أموالهما ، وعاد الحاكم بعد ذلك فأمن أولاد القتيلين وخلع عليهم[1]

واليك طائفة أخرى من حوادث القتل والسفك التى أمعن فيها الحاكم : فى سنة ٣٩٩ ، قبض الحاكم على جماعة كبيرة من الغلمان والكتاب والخدم الصقالبة بالقصر ، وقطعت أيديهم من وسط الذراع ثم قتلوا ، وقتل فضل بن صالح من أعظم قواد الجيش وفى العام التالى وقعت مقتلة أخرى بين الغلمان والخدم ، وقتل جماعة من العلماء السنية[2] ؛ وقبض على صالح بن على الروذبادى لأسابيع قلائل من عزله ، وقتل ؛ وعين مكانه ابن عبدون النصرانى ، ثم صرف وقتل لأشهر قلائل ؛ وخلفه أحمد بن محمد القشورى فى الوساطة والسفارة ، ثم صرف لأيام قلائل من تعيينه وضربت عنقه (سنة ٤٠١) . وللحاكم قصة دموية مروعة مع خادمه غين وكاتبه أبى القاسم الجرجرائى ، وكان غين من الخدم الصقالبة الذين يؤثرهم الحاكم بعطفه وثقته ، فعينه فى سنة ٤٠٢ للشرطة والحسبة ولقبه بقائد القواد ، وعهد اليه بتنفيذ المراسيم الدينية والاجتماعية ، وعهد بالكتابة عنه الى أبى القاسم الجرجرائى وكان الحاكم قد سخط على غين قبل ذلك ببضعة أعوام وأمر بقطع يده فصار أقطع اليد ؛ ثم سخط عليه كرة أخرى وأمر بقطع يده الثانية فقطعت وحملت الى الحاكم فى طبق ، فبعث اليه الأطباء للعناية به ووصله بمال وتحف كثيرة ؛ ولكن لم تمض أيام قلائل على ذلك حتى أمر بقطع لسانه ، فقطع وحمل الى الحاكم أيضاً ، ومات غين من جراحه (جمادى الأولى سنة ٤٠٤) . وأما أبو القاسم الجرجرائى فقد أمر الحاكم بقطع يديه لوشاية صدرت فى حقه ، ولكنه أبقى على حياته ، وعاش أقطع اليدين[3]

(١) المقريزى — ج ٣ ص ٣٢ ، ٣٣

(١) المقريزى — ج ٣ ص ٢٣ ، ٢٤
(٢) المقريزى (ج ٤ ص ٨٨)
(٣) النجوم الزاهرة (ج ٤ ص ٢٢٣)